



حسين سعد

الأصولية الإسلامية العربية المعاصرة بين النص الثابت والواقع المتغير

(بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٥). ٥٢٧ ص. (سلسلة أطروحات
الدكتوراه؛ ٥٢)

وليد خالد أحمد حسن^(*)

كاتب وباحث عراقي.

- ١ -

انصبَّ موضوع الكتاب أساساً على
المفكرين المسلمين العرب المعاصرين
المؤسسين للحركات الأصولية الراهنة –
البنا، قطب، الصدر – ذلك لأن تلك
الحركات، فكرياً وتنظيمياً، استندت إلى
المبادئ النظرية الأولى التي وضعها مفكرو
الأصولية في مرحلة التأسيس، فأصبحت،
بجد ذاتها، أصلاً، ومعيناً ينتهل منه
الأصوليون اللاحقون.

ولم يشأ الكتاب الخوض في مسائل
تتصل بالعقائد الإيمانية التي تناولتها
الأصولية، حيث إن ما اهتم به محصور في
مسائل تتصل بالتقدم وبناء المجتمع
العاقل، والدولة العادلة من وجهة نظر
الإسلام كما قدمها الأصوليون أنفسهم،
دون أن يفوته النظر النقدي في مناهج
استيحاء الإسلام عند البنا وقطب
والصدر.

بهذا المعنى، ليس غرض الكتاب

موضوع الكتاب الذي نحن بصدد
مراجعته، هو دراسة تحليلية نقدية للفكر
الأصولي الإسلامي العربي المعاصر في
مسألة الأمة والدولة والمجتمع والعدالة
الاجتماعية. وقد حُدد نقد هذا الفكر، من
الناحية المكانية، في مصر، حيث نشأ وقوي
واشتدَّ عوده وتوسع. وقد اكتفى الكتاب
بدراسة مستفيضة حول فكر مؤسس
الأصولية الإسلامية السُّنيَّة المعاصرة، حسن
البنا (١٩٠٦ – ١٩٤٩)، ثم تابع التحولات
في العقل الأصولي السُّني عند سيد قطب
(١٩٠٦ – ١٩٦٦). ولأن الأصولية الإسلامية
العربية لم تكن محصورة في الوطن العربي
السُّني فقط، بل تعدته إلى المسلمين الشيعة
أنفسهم، فصار لزاماً أن يشمل الكتاب هذه
الأصولية في موطن نشأتها الأول – العراق –
وعلى يد مؤسسها السيد محمد باقر الصدر
(١٩٣٥ – ١٩٨٠).

وكيف استطاع الفكر الأصولي بناء على أقوال النبي (ﷺ) مقاربة أيديولوجيات سياسية واجتماعية معاصرة؟

لذا، تقصّى الكتاب إلى أي حد تمكّن المفكرون الأصوليون من بناء نظرية إسلامية عربية معاصرة في الاجتماع والسياسة، وإلى أي حد أيضاً لم تُفقد المعاصرة الإسلام الأصولي أصالته.

- ٣ -

إن الغاية المعرفية كانت باعثاً أساسياً على التصدي لإشكاليات العقل الأصولي الإسلامي العربي المعاصر، من زاوية النقد العقلي المعتمد على المنطق، وعلى الفلسفة بتياراتها المختلفة، ومن وجهة نظر مفكرين إسلاميين أيضاً، من العصور الوسطى إلى عصرنا هذا. لذا، تناول الكتاب العقل والفكر الأصوليين لإنتاج تصور متكامل حولهما، منهجاً وموضوعات، وطمح إلى أن يبيّن قدرة أو عجز الأصولية الإسلامية العربية المعاصرة إزاء تقديم نظرية شاملة في إنارة الطريق أمام المجتمعات العربية لمواكبة روح العصر، دون الاصطدام غير المسوغ مع إنجازات البشر في بناء الحياة المعاصرة، والفحص عن تهافت الأطروحات الأصولية بتبيان خروج الفرع عن الأصل، وإظهار أن هذه الأطروحات لا تعدو كونها فكراً وضعياً بشرياً، وإن ارتكزت في استنباط أحكامها إلى القرآن والسنة والإمامة، وهي الأصول الثابتة في الإسلام بشقيه السنيّ والشيوعي، أو تأثرت بأصوليين سابقين أيقظوا العقل الإسلامي على الأصولية، وجاءت كتاباتهم نصوصاً

الحكم على الإسلام سلباً أو إيجاباً، ولا الحكم للأصولية أو عليها، ولا هو دراسة تاريخية تبحث في نشأة الحركات الأصولية ميدانياً، وتغوص في كشف سرّيّة عملها وتنظيمها. بل رام إلى اكتشاف كنه العقل الأصولي الذي يبتني، على تصورات مقررّة على نحو نهائي، تصورات أوضاع قائمة تمتاز باللانهائية، إذ هي تتجدد وتتغير وفقاً لعوامل ونواميس تخضع لها المجتمعات نشأة وتطوراً.

- ٢ -

ولأن الأصولية تقدم مشروعها السياسي والفكري في إطار تحقيق التقدم الذي لا يعني مجازاة الأمم في ما بلغته من أنماط في تنظيم المجتمع، ووسائل إدارته، وما نجم عنها من سلوكيات وأخلاق، بل ترى التقدم في بعث الإسلام في المجتمعات العربية، لذا حصر الكتاب موضوعه في تحليل عناصر الاجتماع بالمفهوم الأصولي، وعرض أفكار العدالة، وتحليل مفهوم الدولة، وعرض نظرية الحكم الإسلامية التي تدعو الأصولية إليها، ليدرس الإشكاليات من زاوية النقد الإيجابي وبالتالي استكشاف الأساليب التي يلجأ إليها الأصوليون المسلمون العرب على الصعيد الفكري لتجاوز المأزق الكبير المترتب على البعد بين النصوص الثابتة وقوانين العلم الجديدة والمتغيرة.

وعليه، فالباعث الأول لموضوع الكتاب، رغبة معرفية في تتبّع الإشكاليات المتمحورة حول السؤال التالي: كيف حاول العقل الأصولي أن ينتج نظريات من القرآن الذي هو ليس كتاب نظريات،

نظرية إسلامية في السياسة والاجتماع، وشكّلت تنظيماتهم التي أنشأوها وطوروها ميداناً جديداً للعمل الإسلامي الحزبي المنظم، الذي يماثل في التنظيم والانضباط والطاعة التنظيمات والأحزاب ذات المنشأ الغربي من شيوعية وفاشية، بما في ذلك الأجهزة العسكرية المستعدة للموت دفاعاً عن العقيدة.

إن الإسلام لم يعد اليوم ديناً مفصلاً عن الحياة، بل صار هو الحياة. فقد ولد الإسلام النضالي على يد هؤلاء الأقطاب الثلاثة، الذين لم يمنعهم شيء من مواصلة جهادهم سوى الموت، إذ إنهم جميعهم دفعوا أرواحهم ثمن مواقفهم السياسية المناوئة للأنظمة التي اغتالتهم، واعتبروها خارجة عن الإسلام، ووصفوها بالجاهلية الجديدة.

عالج الكتاب مسألة من المسائل الشائكة والمثيرة في هذا العصر؛ فهي شائكة لأنها تقارب الأصول التي ارتكزت إليها الأصولية الإسلامية العربية المعاصرة في استخراج حلول لما هو راهن من القضايا؛ ومثيرة لأن ملامسة الأصول قد تؤدي إلى قراءة جديدة لها تبعاً لاحتمالين: الأول، من جهة وضعيتها، باعتبارها جاءت استجابة لوقائع ومعطيات ملائمة لعصرها. والثاني، عجز القدسي عن تقديم الإجابات بشكل ثابت عن الوقائع اللامتناهية مما يستلزم وجوباً تأويلًا للآيات القرآنية.

ويبقى ما تلخص إليه هذه التأويلات موضع أخذ ورد، لأنها فهم بشري لنص ديني، وهذا هو معنى الإشكال المعرفي الذي تقصّى الكتاب مكانه في

متغيرة مع أنها استندت إلى الأصول الثابتة المشار إليها.

وتتبع أهمية دراسة الأصولية العربية المعاصرة لا من كونها فقط امتداداً تاريخياً وطبيعياً للسلفية الإسلامية، بل نظراً إلى أنها تشكّل ظاهرة في واقع الحياة العامة على مستوى المسلمين أولاً، ولأنها، ثانياً، تقدم نفسها كطرف يمثل مشروعية العمل بموازاة التيارات الفكرية والسياسية السائدة.

- ٤ -

خرج مفكرو الأصولية الإسلامية المعاصرة - البنا وقطب والصدر - إلى معترك الحياة مع نهاية الثلث الأول من القرن العشرين. وانبرى هؤلاء على مدى نصف قرن ونيف (١٩٢٨ - ١٩٨٠) للتصدي لأصعب المسائل وأعقدها، لا سيما منها تلك التي شغلت مفكري وأيديولوجيي الثورات المعاصرة، من برجوازية وليبرالية واشتراكية، في أوروبا والعالم، بحثاً عن نظام سياسي أكثر عدلاً وأقل استبداداً يوفر المساواة في الحقوق والفرص والأفراد، وينأى عن التعسف الاجتماعي في النظرة إلى المجتمع، وتحقيق العدالة بين الناس، وتوزيع الثروة بينهم، بحيث لا تعظم الهوة بين الأغنياء والفقراء.

جمع الأعلام الثلاثة بين الفكر والممارسة، فلم يكتفوا بالدعوة إلى إحياء الإسلام كطريق إلى خلاص الفرد العربي المسلم، فضلاً عن الوطن والأمة، من ربقة الظلم والتخلف، بل راحوا يبحثون عن الأطر السياسية الكفيلة بالوصول إلى هذه الغاية، فجاءت أفكارهم لترسم معالم

إن مهمة إعادة أسلمة المجتمعات العربية بدت بحاجة إلى إعادة تأهيل المفاهيم القرآنية لتأخذ مكان المفاهيم الوضعية المعاصرة. لذا، فإن إشكاليات الأصولية الإسلامية العربية المعاصرة على المستوى النظري، تتسم بكل ما تتسم به كل مثالية مطلقة، وهو سعيها إلى إنشاء مجتمع على صورتها. فقد عادت الأصولية إلى النص القرآني تستوحي منه فكراً وطريقاً لبناء دولة الإسلام في هذا العصر؛ فإذا لم يَكْفِ، استعانت بسُنَّة النبي وسُنَّة الأئمة عند الشيعة. فإذا لم تَكْفِ، كان تراث السلف الصالح معيناً منها. فهي حركية نصية، مسنَّنة، أي غير مبتدعة، سلفية مجددة، تنطلق دائماً من نص ثابت، مصدره الله، ومن تطبيق سُنَّة رسول الله (ﷺ)، وتدل على قدرة الإسلام على التكيف مع أحوال الأزمنة والأمكنة ومتغيراتها، أي الإسلام التاريخي.

لقد اختارت الأصولية الإسلامية المعاصرة، إيثاراً، عقل النص، ووضعت عقل الإنسان في خدمته، فالعقل الأصولي هو نصّي وفيه تكمن الصعوبات والالتباسات، قبل أن تظهر على مستوى آخر هو مستوى المقابلة أو التضاييق مع تصورات العقل البشري الوضعي غير المحكوم أصلاً بالنص.

إن الأصولية الإسلامية على مستوى الفكر، وبالرغم من نهجها المتحسّن، ابتدعت أيديولوجية وضعية في النظرة إلى الإنسان والمجتمع ولم تفلح في إيجاد المثال/النموذج على الأرض. وحفرت في عمق المجتمعات العربية والإسلامية انقسامات حتى على المستوى الديني نفسه،

الأطروحات والنظريات التي قدّمها الأصوليون المسلمون الثلاثة - البنا وقطب والصدر - إزاء مسائل إعادة بناء المجتمع الإسلامي وإقامة العدالة الاجتماعية فيه، والدولة الإسلامية ونظام الحكم العادل فيها، والمسائل المتفرعة منها كالزكاة والضرائب والشورى وسلطة الأمة والحاكمية وولاية الفقيه، وما إليها من مسائل متفرعة التي منها تستمد الحركات الأصولية اليوم أفكارها وبرامجها العقائدية والانقلابية، إذا صحّ القول.

- ٥ -

إن الأصولية الإسلامية - وفق أطروحة الكتاب - هي حركة عقائدية سياسية غايتها إخضاع المجتمعات العربية للإسلام، وطريقها تأصيل التعاليم واستنباط الأحكام الموافقة للشريعة والحلول الكفيلة بمعالجة معضلات الإنسان والمجتمع والدولة. لذا اقتضى منهج التأصيل الذي اعتمده الأصوليون المعاصرون الثلاثة - البنا وقطب والصدر - عودة مباشرة إلى الآيات البيّنات في القرآن الكريم. فمن إعادة فهم الآيات تفسيراً وتأويلاً، إلى استنباط المعاني واستقراء الأحكام لاستخلاص القواعد العامة، سار منهج التأصيل مستعيناً بسُنَّة النبي (ﷺ)، والأئمة، والتراث والسلف الصالح.

إن قراءة الآيات القرآنية عند الأصوليين قراءة جديدة، سمحت باستخراج نظريات إسلامية قادرة على التصدي للنظريات الليبرالية والرأسمالية والماركسية حول الثورة والتغيير الاجتماعي.

وحركة تأصيل تاريخي للإسلام في حقباته المختلفة، شكلت ينباع نهل منها البنا وقطب والصدر في سعيهم إلى تجديد الإسلام، وإعادة بعثه من جديد ليقود الحياة في هذا العصر. وعلى هذا الأساس تعين على الكتاب التمييز ما بين هذه المصادر.. لأن منها ما هو ثابت وقديسي إلهي (القرآن)، ومنها ما هو بشري (السنة)، ومنها ما يدخل في باب الإمامة عند الشيعة (نهج البلاغة).

ولأن البحث في الأصولية انطلق من زاوية تاريخية، كان لا بد من تعيين مواقع الحركة السنية، وإبراز أعلامها الذين اعتبرتهم سلفيين أصوليين، لأنهم شكّلوا في عصورهم حركة انبعاث وتصحيح وتأصيل للإسلام، مثل الغزالي وابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب ورشيد رضا والمودودي، وذلك في الحقبات الزمنية الماضية المختلفة. والأمر عينه حصل مع الحركة الشيعية، إذ تناول هذا القسم ظهور فكرة الإمامة عند الشيعة، واختلافها عن الخلافة عند السنة، وحق الولاية للأئمة الاثني عشر المعصومين، ومبدأ العصمة. ثم تناول ظاهرة نظرية المرجعية وولاية الفقيه، التي رأت النور مع الإمام الخميني مؤسس الجمهورية الإسلامية في إيران.

في القسم الثاني، عرض الكتاب إشكاليات الأصولية العربية السنية لدى تنظيم الإخوان المسلمين، باعتباره أساس الحركات الأصولية المعاصرة، فقدم الإشكاليات عند حسن البنا من زاوية مقارنة العقل الديني الإلهي من العقل الوضعي البشري. وعرض كذلك

فكانت النتائج حروباً تبدأ ولا تنتهي، وتدميراً للقوى الاجتماعية صاحبة المصلحة في إحراز التقدم الاجتماعي.

والخلاصة، إن العقل الأصولي ملتبس ماهيةً وتشكلاً وعملاً وتنظيراً، تماماً كما هي حال العقل الذي يستمد من الميتافيزيقيا، فلسفية كانت أم دينية، ضوابطه ومشروعية أحكامه، دون أن يكثر بالتجربة التي تحكم للشيء أو عليه.

- ٦ -

احتوى الكتاب على مقدمة تركّز البحث فيها على تحديد المفاهيم والمصطلحات المستخدمة فيه، ولم يشأ أن يحدد التعريفات تحديداً أيديولوجياً. وللتحرر من الوقوع في هذا المنزلق الخطر، تتبع الكاتب أصل اللفظة في اللغة والمعاجم، وعند الكتّاب المعاصرين، ما أمكن الوصول إلى صيغة تعريفات مقبولة تراعي العناصر الأساسية للمفاهيم مثل: إشكال، أصولية، نص ثابت، متغير، واقع؛ وهي التعبيرات التي تشكل عنوان الكتاب.

إن اعتماد تعاريف جامعة شاملة متحررة من التحيز لم يكن أمراً هيئاً بالنسبة إلى الكتاب. فصعوبته تأتي من اختلاط اللفظ بالأبعاد الدينية والأيديولوجية والسياسية، مما أوجب الموازنة بين تعريفات شتى، واعتماد الأقرب مما تمت معالجته من موضوعات تتصل بالأصولية الإسلامية. وعليه، خصص القسم الأول من الكتاب لدراسة مصادر الأصولية الإسلامية العربية المعاصرة بين نصوصها الثابتة والمتغيرة، لأن هذه المصادر من قرآن وسنة وإمامة

تجديد في الفكر الإسلامي تحاول أن تضيف على مناحي الحياة المختلفة طابع الشرعية من وجهة نظر الشريعة الإسلامية، وليس من أية وجهة أخرى. على أن هذا التحديد لم يمنع الكتاب من تقصّي مدلولاته في مجمل المناهج الإسلامية الاستشراقية التي تناولت البحث عن مدلولات لفظة «أصولية» وأبعادها الفكرية والأيدولوجية. فقد استقر الرأي على أن النص الثابت الأصلي للأصوليات الإسلامية العربية المعاصرة هو القرآن الكريم، وهو واحد لا متكثّر، ثابت لا يتغير، إنه كلام الله الذي يتمتع بصفات مطلقة، تليه السُنّة النبوية والإمامية اللتان تحتلان الموقع الثاني في عرف الأصوليين، ونظام استنباطهم العقلي.

وخلاصة ما انتهى إليه الكتاب في تحديد المفاهيم الضابطة لمجمل أطروحاته، أن النص الأصولي الإسلامي العربي المعاصر يتمتع بسلطة معرفية مستمدة من القرآن والسُنّة النبوية والإمامية، علماً أن الثابت هو كل نص دُونَ وانتهى، وتغيّره لا يتوقف على ألفاظه بل على دلالاتها وتأويلاتها تبعاً لمتغيرات الواقع والأحداث لتستوعبها، أو ليضفي النص الثابت على الواقع المتغير شرعية دينية أو فقهية ■

الإشكاليات عند سيد قطب من زاوية مفارقة الإلهي الوضعي. وتمحور هذا القسم، فكرياً وإشكاليات، حول ثلاثة موضوعات: منهج استحياء الإسلام، الأمة والدولة، المجتمع والعدالة الاجتماعية.

وخصص الكتاب القسم الثالث لدراسة إشكاليات الأصولية الشيعية العربية من خلال مؤسس حزب الدعوة في العراق محمد باقر الصدر. فتناول فيه إشكاليات المنهج الصدري في النظر إلى الكون والإنسان، واستحياء الإسلام لمعالجة مسائل العصر المطروحة. ثم درس نظرية المجتمع والعدالة الاجتماعية، والأمة والدولة، ونظام الحكم في الإسلام عند الصدر، وذلك لضمان وحدة المباحث الرئيسية المشتركة بين البنا وقطب والصدر.

أما القسم الرابع من الكتاب، فقد غلب عليه التركيب لأن لا معرفة جديدة من دون أحكام تركيبية، منهجها الاستقرار وربط الأشياء بعضها ببعض لإنتاج أحكام جديدة تتصل بطبيعة المعرفة حول العقل الأصولي الملتبس بجملته، فكانت نظرة نقدية في إشكاليات الأصولية بين الماضي والحاضر.

لقد اعتبر الكتاب أن الأصولية حركة